1502

مجموعات جامعة الامارات العربية المتحدة

(٥١)

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

٢٥٢٠٥٣
٢٥٢٠٥٣
ن

دروس السيرة النبوية وعبرها
فقه السيرة

الدكتور/ أحمد محمد العليمي

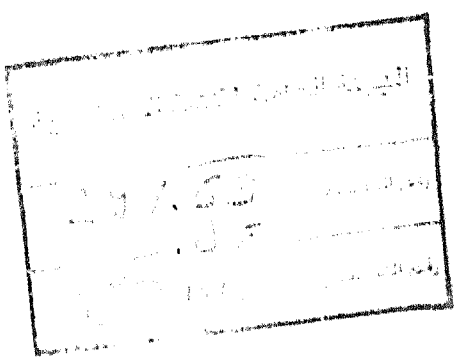

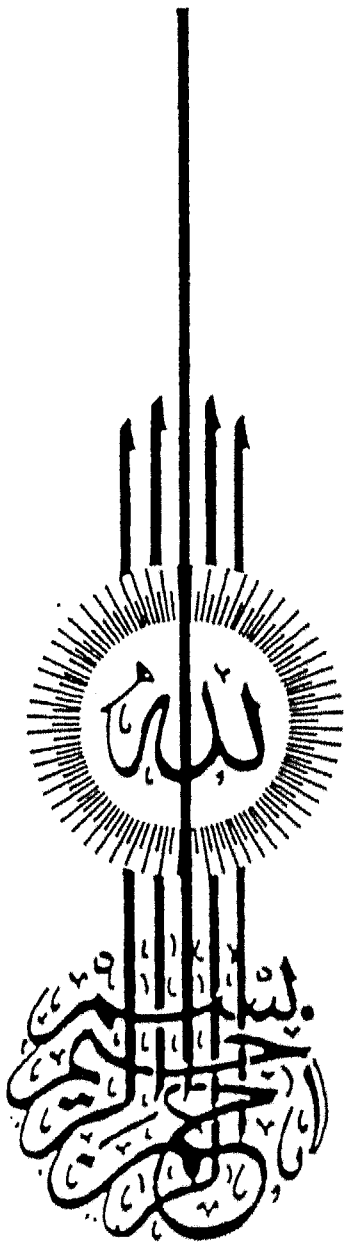
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(١).

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾(٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾(٣).

اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا وإليك المصير، اللهم إنا نبرأ من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك، وخاتم رسلك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:-

فإن السيرة النبوية درسُ التاريخ والواقع والمستقبل، لأنها تمثل الوجود الحقيقي للمسلم أينما وجد وحيث كان. قال تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾(٤).

لذا فالسيرة هي مصدر التطبيق لشخصية المسلم القويمة ضمن مبادىء وأحداث التكوين التي تمت لهذه الأمة من خلال صناعتها على يد محمد ﷺ. بهدايتها إلى صراط الله المستقيم، وبما شرعه من الدين.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.
(٢) سورة النساء آية ١.
(٣) سورة الأحزاب آيات ٧٠ - ٧١.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢١.

ومما لابد أن يُنتبه له في هذا الموضوع ما يلي:-

الأول: إن وجود الأمة ذات الكيان الواحد المتوحد الفاعل إنما بدا نزل الوحي على محمد ﷺ فكان النور الهادي والتبشير بفجر أغر للإنـ في هذا الوجود، استطاع الإنسان من خلال معرفته بالوحى أن يصنع الـ وأن يصيغ حياته في الوجود ضمن متطلب التوافق بينه وبين ما حوله في الوجود.

الثاني: إن تاريخ الأمة قبل الإسلام قد مُلىء بتحقير العقل، وهـ الممارسة على رغم بعض الصفات الطيبة التي تواجدت منفكة عن بعض البعض هنا وهناك، إلاّ أنها لم تنتظم في إبداع يصنع الإنسان أو يُ الحضارة، أو يحترم القيم، أو يرفع من شأن العقل البشري أو يحقق إنس الإنسان. بل كانت الجاهلية الجهلاء في صور متناقضة ومبادىء هابط تليق بالعقل البشري ولا تحترمه.

الثالث: إن السيرة النبوية لا ينبغي أن تبقى في حياة المسلم وخاصة في هذا العصر الذي تُحاول الجاهلية المعاصرة أن تجتث الهـ الإسلامية من الناس - قصة تُتلى في المناسبات، أو تُردد في اللقا والجلسات والاحتفالات فقط، بل ينبغي أن تكون نبراساً وهداية واضحة لل الذي أدته إبان إيجاد الأمة في أول نشأتها ووجودها، ليقتدي الخلف بالس في التطبيق.

الرابع: أطلق بعض كتاب السيرة لفظ (فقه السيرة) على دروس و عبّروا عنها حسب فهمهم لذلك.

فهذا يذكر الدروس والعبر الفقهية التي تُعنى باستنباط الأحكام الشر من الأدلة التفصيلية كما فعل ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد.

وهذا يذكر الدروس والعبر الدعوية التي يصنفها في دلالات فقه الد المعاصرة لحاجة الناس في رأيه لذلك الآن.

وهذا يذكر الدروس والعبر التي ألمحت إليها النصوص في مح للتأمل، أو العيش في الظلال الوارفة للسيرة النبوية.

وهذا يذكر الدروس والعبر الجهادية والعسكرية والقيادية ضمن قدراته في الاستنباط والتحليل أو خلفيته العملية أو الفكرية، وهذا كله خير ونعمة علمية وفضل من الله للمسلمين.

ومما أكرم الله به هذه الأمة ضمانتين:

الأولى: ضمانة حفظ التصور

التصور الإسلامي مستمد من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ

قال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1].

والمقصود القران والسنة لأنها تابعة له فلا يمكن أن يُفهم إلاّ بها.

قال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتُبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[2].

الثانية: ضمانة البقاء والإستمرار

وهي ضمانة الوجود لهذه الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله)[3].

وأردت بهذا البحث أن أحقق أمرين من هذا الجهد:

أولاً: تلبية حاجتنا التي تصنع وجودنا، وتحافظ على كياننا، وقد يكثر الاستنباط الدعوي المتعلق بالهوية على غيره، ذلك لأن الحاجة اليوم إليه أشد من حاجتنا إلى الماء والهواء.

الثاني: أن الدراسات كثرت وكبرت فأردت الاختصار، وخاصة لطلاب استعجل عليهم الزمن فلم يجدوا فيه متسعاً، أو لدعاة كثرت عليهم المهام فهم مثقلون بأعباء الدعوة ومتطلباتها فكان هذا الجهد المختصر – والذي أرجو أن يكون مفيداً – نتيجة معايشة وممارسة امتدت في الزمن طولاً، فكانت ثمرة

(١) سورة الحجر آية ٩.

(٢) سورة النحل آية ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً ٣٩/١ (ح/٧١) ومسلم، كتاب الإمارة باب لاتزال طائفة من أمتي ١٥٢٤/٣ (ح/١٠٣٧).

جهد دعوي ميداني تعليمي.

منهجي في البحث

١ – اعتمدت على القرآن أولاً، ثم الروايات الصحيحة إذا توفرت في كل ح وخرّجت ذلك، فإذا وجدته في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك، ذكرت غيرهما.

٢ – رجعت إلى كتب السيرة النبوية لذكر بعض الأحداث المكملة للقصة، ذكر حكم سندها في أغلب الأحوال، وما لم يرد صحيحاً أو حسناً ذك مصدره.

٣ – أوردت أحداث السيرة في نقاط محددة في كل موضوع تسهيلاً للقا وتقريباً للمعلومة إليه ليسهل عليه الفهم والإدراك.

٤ – استخرجت الدروس والعبر من كل حدث، وصغت تلك الدروس بطري توجيهية للقارىء، وقد استفدت من مجموعة من الدراسات والكتب المؤ في الموضوع(١).

أسأل الله قبول هذا الجهد وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، فما كان من صواب فمن الله، له الفضل والكرم والمنة، وما كان فيه من خطأ فمني و الشيطان، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، والله المستعان ولا حول ولا قوة بالله العلي العظيم.

أبو عماد الد

---

(١) موارد الاستفادة.

– فقه السيرة: للغزالي رحمه الله.

– فقه السيرة: للبوطي.

– السيرة النبوية دروس وعبر: للسباعي رحمه الله.

– تأملات في حياة النبي ﷺ : د. محمد الوكيل.

– محمد رسول الله ﷺ : د. محمد الصادق العرجون وغيرها.

العرب قبل الإسلام

العرب قبل الإسلام

* حال العرب قبل مجيء الإسلام – في الجزيرة العربية – اتسم سمات يحسن إجمالها باختصار فيما يأتي:–

*** الحالة الدينية**

* كان العرب يدينون ببقايا دين إبراهيم عليه السلام في مكة، يت الناس بها، حتى جاءهم عمرو بن لحي الخزاعي بصنم من الحيرة فع الأصنام. وحلل لهم وحرم لهم. لذا قال فيه النبي ﷺ (لقد رأيته في يجر قُصبه)[1]، فهو أول من غيّر دين إسماعيل[2]. وكان من مظاهر ذلك

– أن اتخذت كل قبيلة منهم صنماً كبيراً يعبدونه، واتخذ كل واحدٍ منهم ص لنفسه يعبده خاصاً به.

– وكان الواحد منهم يتخذ صنماً من حجر فإذا وجد حجراً أجمل مما . قذف بما معه، وأخذ الأخرى واتخذها من دون الله آلهة.

– بل إن بعضهم اتخذ صنماً من تمر، يقول أحدهم عن نفسه «كنت إذا ج أكلته، وإذا شبعت عبدته»(٣).

– إلاّ أن عبادتهم للأصنام لم تقم على إنكار الله وجحوده والإلحاد به، بل . أن الأصنام شريكة مع الله وشفيعة عنده.

قال تعالى ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والق ليَقُولُنَّ الله فأنى يؤفكون، الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِرُ له الله بكل شيء عليم، ولئن سألتهم من نَزَّلَ من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قُلِ الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون** ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضع (٤/٢١٩١) (ح/٢٨٥٦). وقصبه: أي الأمعاء، أو ما كان أسفل البطن منها. انظر النه ٤/٧٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٢١ بإسناد حسن.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٨٩ – ٢٩٣ – بإسناد حسن.

(٤) سورة العنكبوت آيات ٦١ – ٦٢ – ٦٣.

وقوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يَضُرُّهُمْ ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتُنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1].

- وإذا اعترى إيمانهم ذلك الضلال، فمن باب أولى أن يفقدوا التشريع الرباني الذي تسير به حياتهم، ويُنظم شؤونهم.

قال تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾[2].

بل أنكر الله عليهم إعطاءهم لأنفسهم حق التحليل والتحريم.

قال تعالى ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾[3].

ويصوّر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حالهم في الجاهلية في قوله بمجلس النجاشي في الحبشة: (أيها الملك كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، لا نحل شيئاً ولا نحرمه .....الخ)[4].

- وكان لهذا الانحراف الديني والشرك بالله ردة فعل عند بعضهم. جعلتهم ينطلقون للبحث عن دين يصلهم بالله، وجعلت البعض الآخر يتأمل ويتفكر في الكون وفي خالقه.

ومن هؤلاء:-

* زيد بن عمرو بن نفيل

روى البخاري رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن عمرو ابن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، لعلّه يتبعه، فقال له اليهودي: «إنك لا تكون على ديننا حتى

---

(١) سورة يونس آية ١٨.
(٢) سورة المائدة آية ٥٠.
(٣) سورة النحل آية ١١٦.
(٤) انظر القصة بتوسع في فصل (الإبعاد عن ميدان الصراع - الهجرة إلى الحبشة).

تأخذ نصيبك من غضب الله».

قال زيد: وما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيع. فهل تدلني على غيره؟

قال: « وما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً ».

قال زيد: وما الحنيف؟

قال: « دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله ».

فخرج زيد، فلقي عالماً نصرانياً، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه فقال:

« اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم »[1].

وقد لقي زيد النبي ﷺ إلا أنه مات قبل أن يبعث الرسول ﷺ[2].

وورد أن النبي ﷺ قال عنه « دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين »[3].

* ورقة بن نوفل

رُوي أنه خرج مع زيد بن عمرو بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه وبعد البحث تنصَّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام[4].

وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها الذي سيأتي ذكره في قصة نزول الوحي عندما استشارته فيما رآه النبي ﷺ في غار حراء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ١٣٩١/٣ (ح/٣٦١٤ - ٣٦١٥).

(٢) أخرجه البخاري بموضعه ١٣٩١/٣ (ح/٣٦١٤).

(٣) أورده ابن كثير في البداية ٢٦٣/١٢ من رواية الباغندي، وقال ابن كثير - وهذا إسناد جيد - والدوحة: الشجرة العظيمة. انظر النهاية ١٣٨/١.

(٤) أوردها الطيالسي - ترتيب البناء ١٦١/٢ - بإسناد ضعيف لأن في سندها نفيل بن هاشم وهو مجهول، ولم يوثقه سوى ابن حبان - وله شواهد مما ورد في قصة زيد بن عمرو إلى الشام وهي صحيحة - فلعله يرتفع إلى درجة الحسن لغيره.

* أمية بن أبي الصلت

دخل في النصرانية، وهو من فحول الشعراء، قال فيه النبي ﷺ (كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم)[1] وفي رواية (فلقد كاد أن يسلم في شعره)[2].

عاش إلى زمان البعثة ولم يؤمن تكبراً عن أن يكون تابعاً للرسول ﷺ[3].

* لبيد بن ربيعة العامري

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات قال الرسول ﷺ عنه (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد، الا كل شيء ما خلا الله باطل)[4].

* الحالة الاقتصادية

- لم يكن للعرب مصادر ثروات كبيرة في بلادهم، بل كان الفقر منتشراً في تلك الديار ، فأكثرهم يعيش في البادية على رعي الأغنام والإبل. واشتغل بعضهم بالزراعة في المناطق التي توفرت فيها فرصة ذلك من مياه وأرض صالحة.

واشتغل آخرون بالتجارة - كأهل مكة -.

قال تعالى ﴿ **لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف** ﴾[5].

- وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة، ورحلة الصيف إلى الشام مصدر رزق يوفر لهم بعض المال والمتطلبات من خلال تلك القوافل التي سيّروها بين المنطقتين[6].

- وكان الحج يوفر لهم بعض المال:

- قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا**

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب ايام الجاهلية ٣/١٣٩٥ (ح/٣٦٢٨). واخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر ٤/١٧٦٨ (٢٢٥٥).

(٢) اخرجه مسلم ٤/١٧٦٨/ ٢٢٥٥. بموضعه قبله.

(٣) انظر فتح الباري ٧/١٥٣.

(٤) اخرجه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب ايام الجاهلية ٣/١٣٩٥ (ح/٣٦٢٨). ومسلم كتاب الشعر ٤/١٧٦٨ - (ح/ ٢٢٥٦).

(٥) سورة قريش.

(٦) تفسير التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٨.

يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً فسوف يُغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله[2]

قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله (وإن خفتم عيلة..) الآية.

فقد كان الحج في الجاهلية مصدراً من مصادر أرزاقهم، لذا خافوا بعد ذلك من انقطاعه فطمأنهم الله بأن الله هو الغني الذي يُغني من يشاء من عباده.

* **الحالة السياسية**

* الواقع السياسي الذي عاشه العرب في الجزيرة، يرد في النقاط التالية:

- فقدان الدولة.
- الغلبة للأقوى.
- حياة قتل وقتال.
- اجتياح أبرهة الأشرم والي اليمن الحبشي لأرضهم.
- تبعية للفرس والروم في أطراف الجزيرة.
- الولاء للقبيلة.

* وإليك نبذاً مختصرة عن كل نقطة من هذه النقاط.

* **فقدان الدولة**

عاش العرب في إطار القبيلة وأعرافها وتقاليدها بعيداً عن مدلول الدولة - وخاصة في وسط الجزيرة العربية، مكة وما حولها - حيث لم تتوفر لهم الدولة بأي معنى من معانيها المعروفة.

---

(١) سورة التوبة آية ٢٨.
(٢) تفسير القرآن لابن كثير ٣٤٦/٢.

– وفي أطراف جزيرتهم الشمالية وجدت دولة الغساسنة والمناذرة إلا أن ما يمكن أن يقال عن ذلك إنه ترتيب من الدول الكبرى يومئذ لأحوال جيرانهم من أجل توفير الأمن لتلك الدول الكبرى، كما ورد في حديث رستم قائد جيش الفرس للمغيرة رضي الله عنه قبيل القادسية بقوله «قد كنا نوكل بكم أمراء الأطراف فيكفونا أمركم»(١).

وفي جنوب الجزيرة في اليمن عرف الناس الدولة إلا أن غزوات الفرس والأحباش كانت مسيطرة على ذلك الطرف القصي من جزيرة العرب.

ولا يمكن أن نجد غير المحاولة التي جرت في المدينة قبيل هجرة النبي ﷺ إليها في تمليك عبدالله بن أبي بن سلول وجعله ملكاً على يثرب، وخاصة بعد القتال الذي حدث بين الأوس والخزرج في يوم بُعاث(٢).

*** الغلبة للأقوى**

– إن الميزان الذي كان يتعامل به العرب هو ميزان القوة والقدرة على الصراع وإنزال الأذى بالخصم. يعبر أحد شعرائهم فيقول:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يُظلم

لذا كانوا يطلبون الولد يتكثرون به في قتال بعضهم، وغزو بعضهم للبعض. ويعيرون من لا ولد له كما حدث لعبد المطلب بن هاشم عندما أراد أن يحفر بئر زمزم فمنعته قريش بسبب ذلك. فنذر لله إذا أعطاه عشرة من الولد الذكور أن يذبح أحدهم عند الكعبة(٣).

فلما ولد له استقسم بالأزلام فخرج القسم على عبدالله بن عبدالمطلب والد النبي ﷺ وكرر ذلك مرات وتكرر ذلك. حتى فداه بمائة من الإبل فكانت الدية بسبب ذلك مائة من الإبل في أعراف العرب وأقرها الإسلام.

وفي المقابل كانوا يكرهون مجيء الإناث، قال تعالى: ﴿ **وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر**

---

(١) البداية والنهاية ٧/٤١ – ٤٢.

(٢)السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية/٦٥ والتاريخ – للطبري – ٢/٢٣٩ – ٢٤٠ وانظر السيرة الذهبية ١/٢٦١.

(٣) السيرة النبوية – ابن هشام – ١/١٣١ – ١٣٤، والسيرة النبوية الصحيحة ١/٩٢ – ٩٣.

به أيُمسِكُهُ على هُونٍ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[1].

«وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سوّل لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن في الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة، ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات. إذ البنات لا يقاتلن، ولا يكسبن، وقد يقعن في السبي عند الغارات فيجلبن العار، أو يعشن كلاً على أهليهن فيجلبن الفقر.

والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله. إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ولا يصيب أحداً إلا ما كتب له، ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله، والأنثى - من حيث إنسانيتها - صنو الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام.

ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم» مسوداً من الهم والحزن والضيق، وهو كظيم يكظم غيظه وغمه، كأنها بلية، والأنثى هبة الله له كالذكر، وما يملك أن يصور في الرحم أنثى ولا ذكراً، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة السائجة إنساناً سوياً، وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر - بإذن الله - ليكفي لاستقبال المولود - أياً كان جنسه - بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال، لمعجزة الله التي تتكرر، فلا يبلي جدتها التكرار! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور، إنما كان أداة القدرة في حدوث المعجزة الباهرة؟

وحكمة الله، وقاعدة الحياة، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى، فالأنثى أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر، بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر، فكيف يغتم من يبشر بالأنثى، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائماً؟.

إنه انحراف العقيدة ينشىء آثاره في انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده... «ألا ساء ما يحكمون» وما أسوأه من حكم وتقصير»[2].

---

(١) سورة النحل آيات ٥٨ - ٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ٢١٧٨/٤.

*** حياة قتل وقتال**

يتقاتلون لأتفه الأسباب، بل تستمر المعارك السنوات الطوال من أجل سبب تافه مثل ناقة كليب في حرب داحس والغبراء.

- بل اعتمدوا حركة الغزو في كسب أرزاقهم وتحصيل قوتهم، بل قد يعتدي القريب على قريبه إذا لم يجد عدواً يفتك به.

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقطع الطريق، وأخذ الأموال، والاعتداء لمجرد الاعتداء، صفات اتصف بها سكان البادية في الجزيرة العربية، ومارسوها، واشتهروا بها.

*** الاعتداء عليهم**

وكان ذلك في أبرز صورة من خلال حادثة الفيل: قصة الفيل:[1]

وهي قصة مشهورة أرّخ بها العرب لدلالتها على مزيد عناية الله تعالى ببيته، ذلك أن أبرهة الحبشي لما غلب على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون زرافات، ووحداناً، ورجالاً وركباناً الكعبة البيت الحرام قال: إلامَ يقصدون؟ قالوا له: إلى الكعبة بمكة يحجون، قال: وما هو؟ قالوا له: بيت من الحجارة قال: وماكسوته؟ قالوا: ما يأتي من ههنا من الوصائل[2]، قال: لأبنينّ خيراً منه.

فبنى لهم كنيسة بصنعاء تفنّن في بنائها، وتزيينها، وسماها «القُلّيْس»[3] قاصداً صَرْف العرب عن الكعبة، ولكن أعرابياً عمد إليها فتغوّط فيها، فلما علم أبرهة استشاط غضباً، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش لَجب لا قِبَل لأهل مكة والعرب به، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائل العرب، ولكنه تغلب عليهم، وعند مشارف مكة وجدوا إبلاً لعبدالمطلب بن هاشم، فاستاقوها فذهب عبدالمطلب إليهم، وكان وسيماً جميلاً تعلوه المهابة والوقار، فاستعظمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلمه في الإبل عجب وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/٢٩٧ - ٢٩٩، السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة. أ.د. محمد أبوشهبة ١/١٦٧ - ١٦٨. والسيرة النبوية الصحيحة ١/٩٧.

(٢) الوصائل هي ثياب مخططة يمانية، كانت تكسى بها الكعبة.

(٣) بضم القاف وفتح اللام المشددة، وسكون الياء، وقيل: بفتح القاف وكسر اللام.

تكلمني في بيت فيه عزك، وشرفك، وشرف آبائك؟ فقال عبدالمطلب هذه الكلمة التي سارت مسير الأمثال: «أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه»[1]!!

ثم رجع عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال:

لا هـمَّ [2] إن المـرء يمنـع ... رحلـه فامنـع رحـالك

وانصر على آل الصـليب ... وعـابديه اليـوم آلك

لا يغـلبن صـليبهم ... ومحـالهم أبداً محـالك

إن كنـت تاركهم وقبلتنـا ... فـأمر مـابـدا لك

ثم أرسل حلقة البيت وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بالبيت، وكان في جيش أبرهة فيل عظيم، فصار كلما وجّهوه إلى الطريق المؤدي إلى مكة أبَى وبرك، وإذا وجّهوه إلى غير طريق مكة سار وجرى، ومع هذه الآية أصر أبرهة وجيشه على هدم الكعبة، فما كان إلا أن أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، في مناقيرها وأرجلها حجارة صغار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليس كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزق جسمه ومات، وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك ونكّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل، وقد ذكر الله سبحانه هذه القصة في سورة الفيل قال تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف ماكول**﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[4].

---

(١) رب الإبل: صاحبها ومالكها.

(٢) أصلها اللهم، حذفت الألف واللام منها، واكتفى بالباقي.

(٣) جمع إبيل أو إبول أي جماعات جماعات، وقيل: لا واحد له من لفظه.
وسجيل: الطين المحروق بالنار قيل: إنه فارسي معرب.
والعصف الماكول: هشيم الزرع بعد ما يؤخذ منه الحب كالقمح مثلاً.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم مكة ٢/٩٨٨ (ح/١٣٥٥).

فـهي لمّا أراد بهـا أبرهة وجنده سـوءاً أهلكهم الله، ولمّا أراد رسول الله ﷺ وأصحابه بفتحها خيراً أُعينوا ونُصروا، وقد كانت هذه الآية إرهاصاً بين يدي ميلاد نبينا محمد ﷺ ودلالة على يُمْنه، وخيره، وبركته.

*** الولاء للقبيلة**

– كان ولاؤهم للقبيلة عظيماً، فلا ينفذون إلا ماتراه، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون به من سادتهم وزعمائهم.

– الغوا عقولهم وفقدوا معايير إنسانيتهم، فالحق ما أمرت به القبيلة أو اتفقت عليه، والباطل ما أقرت به القبيلة أو اتفقت عليه أنه باطل.

وهل أنا إلا من غُزية إن غـوت غويـت وإن ترشـد غزيـة أرشـد

– لا يسألون عن الحق، بل يستجيبون لكل صارخ

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبـات على ما قال برهـاناً

فهم أصحاب ولاء في إطار وضعهم القبلي يحافظون على أنفسهم من خلاله، ويدينون بولائهم له.

*** الحالة الاجتماعية**

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية. ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل مثل شرب الخمر ولعب الميسر، والزواج بأي عدد، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى الله عنهم كل هذه الرذائل في القرآن الكريم وعلى لسان رسوله ﷺ وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يحاربها طوال حياته كما هو معروف.

مثال ذلك: ما قاله ابن عباس: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما